مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 04/ العـدد 02: (2017)، ص 153- 160

الخطاب الصوفي قراءة في الحدود و الماهية

الأستاذ: صفو عبد الحق
جامعة ابي بكر بلقايد تلمسان – الجزائر.

الملخص

يعد التصوف من أهم الظواهر التي شغلت الفكر الإسلامي إلى جانب علم الكلام والفلسفة والفكر العربي المعاصر. وقد قطع التصوف الإسلامي أشواطا كثيرة في تطوره إلى أن تحول إلى طرق وزوايا ورباطات دينية للسالكين والمريدين يقودهم شيخ أو قطب. وقد قامت هذه الطرق والزوايا بأدوار إيجابية تتمثل في خدمة الناس والفقراء والمحتاجين على مستوى الاجتماعي، ، بيد أن هناك من الزوايا الطرقية التي كان لها دور سلبي يتمثل في مهادنة الاستعمار والتحالف معه ضد السيادة الوطنية ومصلحة الشعب .هذا، وللتصوف علاقة وطيدة بالأدب نثرا وشعرا، إذ استعان المتصوفة بالشعر للتعبير عن مجاهداتهم وشطحاتهم العرفانية، كما استعانوا بالنثر لتقديم قبساتهم النورانية وتجاربهم العرفانية الباطنية. إذاً، ما هي علاقة التصوف بالأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة؟ وسعيا منا في محاولة جد متواضعة بيان مدى التوظيف الصوفي في الشعر خاصة الشاعر صلاح عبد الصبور.

Summary:

Sufi discourse reading in the limits and the essence: Sufism is one of the most important phenomena that preoccupied Islamic thought as well as modern Arabic philosophy, philosophy and thought. Islamic mysticism has gone a long way in its development until it has been turned into religious roads, angles and arches for the walkers and the apostates led by the sheikh or pole. These roads and angles have played positive roles in serving the people, the poor and the needy at the social level. However, there are road corners that have had the negative role of appeasing colonialism and allied against it against national sovereignty and the interest of the people.

الأستاذ: صفو عبد الحق

The Sufis used poetry to express their mitzvot and their trivialities. They also used prose to present their light and mystical experiences. So, what is the relationship of Sufism to literature in general and poetry in particular? In an attempt to try a very modest statement of the extent of Sufi recruitment in poetry, especially poet Salah Abdul Sabour.

التّصوف في طور نشأته الأولى هو العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذّة ومال وجاه والانفراج عن الخلق في الخلو ة للعباد. فالتّجربة الصوفية((هي مجموعة من التجلّيات الوجدانية المؤيدة بأطوار روحانية يسلكها جملة من الشعراء الذين يجتازون مرحلة الزَّهد إلى مراحل تتدرج حتى بهم مدارج السالكين الواصلين))[1].

وكما يحتاج الصَّوفي إلى الشعر ليصف رؤاه؛ يحتاج الشاعر إلى التصوف ليرقى برؤيته الشعرية و ليتحرر من اللغة الآلية إلى لغة رمزية محاولا بذلك الإفلات من عالم المحسوسات إلى عالم المثل البعيدة عن المادية الخشنة[2] واستطاع التصوف أن يقدم نفسه للبشرية كبنية معرفية فضلا عن كونه نزعة روحانية و كاتجاه فنّي فكري إضافة إلى كونه مذهبا اعتقاديا [3] كما استطاعت لغة الشعر العربي ان تنقل أفكار الصوفية ((ذوي القلوب المتألمة و الأحوال المحزونة))[(4)] وأكسبها التصوف جمالا ساحرا بكثرة الرموز و الإشارات و المفارقات و الألغاز[(5)]

لقد كان نزوع الشاعر للتصوف قويا ؛ بحيث كان يلجأ إليه تهربا من أزمات اجتماعية ،وسياسية يعانيها، وقد يكون بحثاً عن عالم أكثر صفاءً ،ونقاء عالم روحاني فيه تجلّيات وحدس، الماديات، وإذا كان التّصوف في مرحلة ما خروجًا عن السائد، ففيه من الرفض وإنكار الذات وكبت المشاعر وتمزق الذات أيضا وإدراك شامل لزّيف الأشياء وغياب الصِّدق والحرية والعدالة ،وقد حمّل الشاعر بطلَه الصوفي معاناته الروحية والمعرفية صارخا في وجه الإنسان والمجتمع[(6)] ولهذا كان الشعر الحديث منطلِقًا في بداياته نحو التعبير عن بعض ما تعبر عنه الصوفية ،وكانت الدعوة إليه أولاً من خلال النّظرة إلى الفكرة والإيحاءات ينحو غالبًا إلى الجوهر ويتخلّى عن العرض كمابدا أنّه يصبو إلى الحق و الحقيقة، والجمال والكمال .

من هنا كانت الصوفية والحداثة الشعرية تبحثان عن غايات مشتركة تتقاطع معها في الدعوة إلى المعاني السامية، ومنها تلك الشفافية في القول غير المباشر وهذا المثول بين يدي الكلمة، فالمتصوفة والشعراء استعملوا اللغة الشِّعرية الإيحائية وذلك للتعبير عن تجاربهم وأحوالهم ومقاماتهم كلٌّبمجاهدته الخاصّة به، وبذوقه وباتِّصاله وبانفصاله .

فالشّاعر والصوفي لكلٍّ منهما معاناتُه وقلقه وبحثهما المتواصل عن العدل، وعن الحقيقة ،ولكل منهما تأمله ومكابدته واغترابه ووحدته وترقبه للحظة الإلهام أو التجلِّي، بل هناك من رأى أن أهل الفن كأهل الطريق، وفي كليهما معاناة داخلية وصراع مع الذات للوصول إلى عمق التجربة.... لكن الشاعر((يتعمق في الوجود كما يتعمقه الصوفي وهنا يلتقيان. وربما سُمِّي المفكر والفيلسوف صوفيًا بهذا المعنى أيضًا، بمعنى أن الصوفية إذا كانت هي عمق التجربة، فكل صاحب تجربة ورؤية عميقة في الفّن والحياة والدِّين هو متصوف بهذا المعنى))[7].

وقد أشار إحسان عباس إلى أن ((الاتجاه الصُّوفي أبرز من سائر الاتّجاهات في هذا الشعر المعاصر))[8] .

1:تعالق التصوف مع الرمز:

يُعد الرمز الصوفي أهم رمز دينيّ يفرض ثقله في الخطاب الشَّعري العربيّ المعاصر عامة ؛ويستمد كثيرا من دواله الرمزية من الطبيعة ،كما تمتزج فيه رموز المكان والزمان ،والشخوص ... مما جعله أكثر أنواع الرموز ثراءً وتنوعاً، واتساعا[9].

ولعلَّ هذا ما جعل الكثير من النُّقاد يحيطونه باهتمام وعناية كبيرين ،فاشرأبت إليه أعناقهم بدءً من تناولهم إياه في طور نشأته الأولى لدى أعلام الصوفية الكبار "كابن العربي، وابن الفارض ...وغيرهم وانتهاءً بانعكاساته على الشِّعر العربي المعاصر وسحق الدراسات الحديثة في محاولة التطهير والتقعيد إلى ضبط عدد هائل من المصطلحات النقدية التي من شأنها أن تحكم الخطاب الشعري المعاصر من قريب أو بعيد [10]....

وأنجزت دراسات تناولت التصوف موضوعاً ،وقد انطلقت تلك الدراسات من مُسلمة أن الألفاظ والتعابير الصوفية لا يتأتى فهمها، وإدراك أبعادها إلا بآليات خاصة ذلك لأنها لغة تقوم على الرمز والإشارة وقد صاغ أصحابها ((تعابير جديدة تعتمد على سيمياء اللغة في تغيير مقام الكلمات)) [11].

وقد حطَّم الصوفيّة حدود الألفاظ ،وألغو الحواجز بين الأشياء لتفنى في بعضها البعض ،ومن ثم تفضي إلى الوحدانية ((حيث تنزاح الألفاظ ،ويتداخل بعضها في بعض

وتكاد تتحول جميعها إلى نغم واحد في فم الصوفي: يحمل أشواقه ،ومواجده ،ويجسد تطلعاته وتصوراته و رؤاه)) [12]مما يعد سببا آخر من أسباب الغموض في الخطاب الصوفي ،إذ ينطلق الصوفي في رحلته متوجها إلى الذات الإلهية ليكشف عن وحدتها، ثمَّ يواصل في حركة معاكسة ليزيح الستار عن الكثرة الباطنية من خلال الوحدة الحقّة((فإذا ما استوت لديه الأضداد - في تكملها ،وانسجامها وتوحدها الروحي العميق- عاد من رحلته ليشهد الله في كل الوجود...))[13]،وكان لزاما أن تنعكس هذه السمات الصوفية على الأدب عموما وعلى الشعر المعاصر بوجه أخص حيث استقى من التصوف الكثير من رموزه .

اختلفت طرائق تشكيل اللغة في العصر الحديث ،فالألفاظ اللغوية رموز تُشير فيها الكلمات إشارة مباشرة إلى موضوع معين، لكن الأمر يختلف في اللغة الأدبية((فإذا كان الشعر تجاوزا للظواهر ومواجهة للحقيقة الباطنة في شيء ما، أو في العالم كله، فإن على اللغة أن تحيد عن معناها العادي ،ذلك أن المعنى الذي تتخذه عادة لا يقود إلا إلى رؤى أليفة مشتركة))[14] بعيدة عما أصبحت عليه حين أفرغت الكلمة من معناها وشحنت بدلالات مغايرة ضمن سياق شعري أوجده الشاعر، هذا ما دأب على تحقيقه هؤلاء الرمزيون لأن جلّ همهم ((يتمثل في تحطيم هذه المصطلحات وتدمير الروابط اللغوية والمتعارف عليها وإعادة ترتيب اللغة ترتيبا حقيقياً))[15] وفق رؤاهم عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح.

يتضمن الرَّمز مستويين ،أولهما مستوى الأشياء الحسِّية وهو بمثابة الوعاء الذي تشحن فيه الحالات المعنوية التي يعانيها الشاعر والتي تمثِّل المستوى الثاني وعند اندماجهما يشرق الرمز في عملية إبداع ،بيد أن العلاقة بينهما ليست علاقة مُشابهة و لا ((يقصد بها التماثل في الملامح الحسية ،بل يقصد بها تلك العلاقات الداخلية بين الرمز والمرموز من مثل النظام والانسجام والتناسب))[16] باعتبار أن العلاقة ليست قائمة على المحاكاة أو الشبه الحسِّي ،لأن المرموز تجريدي ومرجعها العلاقة والشُّعور.

اشتغل الشاعر صلاح عبد الصبور على التميُّز فيما يبدعه حتى أصبح ((لاعب سرك، وأصبح الشعر المعاصر لونا من ألوان الاستعراض انطلاقاً من الواقع ليتجاوزه فيصير أكثر تجريدا وصفاء في دنيا غير دنياه التي يعيشها في ذاته الطاهرة، أين تنهار معالم المادة وعلاقتها الطبيعية لتقوم على أنقاضها علاقات جديدة مشروطة بالرؤيا الذّاتية

للشاعر))[17] فكلما تفاعل الذاتي مع الموضوعي وفق الشاعر في رسم معالمه النفسية بشكل مادِّي ووفق رؤية ذاتية.

يتضمن الرّمز قدرا معتبرا من الغموض نظرا لعمق التّجربة ،ولرغبة الشاعر الكشف عن الوجه الحقيقيّ للكون ،ومعالجته والسعي إلى جعله يصل إلى أفضل صورة ممكنة ثمّ أن الغموض ليس مرجعه((الفكرة التي تقع من خلفه ولكنه مساق الدلالات الضمنية التي تسكن هذه الفكرة ...فالخاصِّية الحقيقية للتعبير الرمزي ليست هي الغموض أو السِّرية، ولكنها الالتباس ،وتنوع التفسيرات الممكنة))[18] فمن غير الممكن أن يفصح الرمز عن مدلولاته لقارئ واحد ،وهذا راجع إلى إغراق الرؤية وتنكُّرها تحت لباس من الضباب الكثيف .

يبدو ممّا تقدم أن القصيدة تُشَكل لغزا، وعلى القارئ أن يكون حراً حين يتوحد مع ما جاد به الشّاعر في مغامرة ارتياد المجهول ،خاصّة بعدما أنعكف على التراث ينهل من منابعه الغنية ويستسقي منه ما يناسب مواقفه ،أو يحمّل بعض الكلمات رموزا طبيعية تشارك رؤيته إلى الوجود .

فالرَّمزيون يريدون أن يغوصوا بشعرهم في أعماق النفس، فلا ينساقون وراء الطبيعة للخروج من نطاق الذات ،بل عنوا بتوثيق الصلة بين الشعر و الموسيقى التي هي أقوى وسائل الإيحاء[19].

2:شذرات صوفية في الشعر العربي:

وقد برز الخطاب الصوف في بواكير أشعار العرب خاصة مع صلاح عبد الصبور في ديوانه ((النّاس في بلادي)) ثم تطورت وكانت ذروة ذلك أن أصدر مسرحية مأساة الحلاج وخلع على هذه الشخصية الصوفية-الحلاج التزاما فجعل من الصوفية التي عرف بأنها ضمن دوائر السكونية- أي التي لا تشارك في قضايا المجتمع- صوفيةً متحركة تتمرد على التقشُّف والكبت والجوع والقهر والظلم، وبعبارة أخرى تقاوم الشر .وهذه الصوفية التي أكثر عبد الصبور من تناولها -ربّما كانت نتيجة حتمية لتساؤلاته الكثيرة وتأملاته في زمنه "الجريح" ابتدأ الشاعر عالمه الشعري وقد صاحبته الإشارات الصوفية، فلا تكاد تجد قصيدة إلاّ وفيها إشعاعات صوفية يتعلق تعليلها بالمتلقي وقراءته.

وتجلت معالم صوفيته في ديوانه الأول الناس في بلادي:[20]

بالأمس في نومي رأيتُ الشيخ محيي الدِّين

مجذوبَ حارتي العَجوزْ

الأستاذ: صفو عبد الحق

وَكَان في حياتِه يُعاينُ الإله
تصوّري، ويَجْتَلي سناه
وقال لي ".... ونسهرُ المساء
مُسَافِرَيْنِ في حديقَة الصفَاء.
يكون ما يكون في مجالس السحر
فظنَّ خيراً ،لا تسَلَني عن خَبَر
ويعقدُ الوجدُ اللسانَ.... من يبُحيضِل
وقال لي وصوتُهُ-العميقُ كالنَغَم-
"يا صاح: أنتَ تابعي
فقم معي..
رِدْ مَشرعِي

أعاد صياغة الأحداث بتشكيل جديد يتفق ومجابهة الشاعر لها، فكان الحلاج هو القناع مع أنه((أبدى رفضه لثنائية الذات التي تقوم عليها قصيدة القناع وعدها آفة في المقاييس النقدية))[21]أو((البديل الموضوعيّ للشاعر في معاناته))[22].ولعلَّه تعبير عن أزمة صلاح عبد الصبور ومأساته الخاصّة، أكثر من كونه تعبيرًا عن الحلاج الصوفيّ ذي التجليات والشطحات.

فالحلاّج عند عبد الصبور، يقول:[23]

الحلاج: مثلي لا يحمل سيفاً.
السجين الثاني: هل تخشى حمل السيف؟
الحلاج: لا أخشى حمل السَّيف ولكني أخشى
أن أمشي به
فالسيف إذا حملت مقبضه عمياء
أصبح موت اً أعمى

من هنا كانت الصوفية والحداثة الشعرية تبحان عن غايات مشتركة تتقاطع معها في الدعوة إلى المعاني السامية، ومنها تلك الشفافية في القول غير المباشر وهذا المثول بين يدي الكلمة، فالمتصوفة والشعراء استعملوا اللغة الشِّعرية الإيحائية وذلك للتعبير عن تجاربهم وأحوالهم ومقاماتهم كلّ بمجاهدته الخاصّة به، وبذوقه وباتِّصاله وبانفصاله .

فالشّاعر والصوفي لكلٍّمنهما معاناتُه وقلقه وبحثها لمتواصل عن العدل، وعن الحقيقة ،ولكل منهما تأمله ومكابدته واغترابه ووحدته وترقبه للحظة الإلهام أو التجلّي، بل هناك من رأى أن أهل الفن كأهل الطريق، وفي كليهما معاناة داخلية وصراع مع الذات للوصول إلى عمق التجربة.... لكن الشاعر((يتعمق الوجود كما يتعمقه الصوفي وهنا يلتقيان. وربما سُمِّي المفكر والفيلسوف صوفيًا بهذا المعنى أيضًا، بمعنى أن الصوفية إذا كانت هي عمق التجربة، فكل صاحب تجربة ورؤية عميقة في الفّن والحياة والدِّين هو متصوف بهذا المعنى))[24].

الهومش:

1- عمر أحمد بوقرورة :دراسات في الشعر الجزائري المعاصر ،دار الهدى الجزائر، 2004 ،ص:97 .

2- عبد القادر فيدوح :الرؤيا والتأويل ،دار الوصال ،الجزائر، 1994، ص:51

3- حسين جمعة :جمالية التصوف (مفهوما و لغة) مجلة الموقف الأدبي ،دمشق ،العدد 346 أوت 2001 ،ص: 11

4- محمد بنعمارة:المرجع السابق ،ص: 45

5- حسين جمعة :المرجع السابق ،ص :19 .

6- أحمد يوسف: تجليات القلق في شعر صلاح عبد الصبور ،مخطوط رسالة ماجيستير ،جامعة وهران ص: 54

7- منصور إبراهيم :الشعر والتصوف، دار الأمين ،القاهر، 1999 ،ص:145

8- إحسان عباس:اتجاهات الشعر المعاصر، عالم المعرفة ،الكويت ،ص:164

9- ربيعة بعلي :المرجع السابق ،ص: 67.

10- ربيعة بعلي :المرجع السابق:ص: 68 .

11- عبد الحميد جيدة :الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ،مؤسسة نوفل ،بيروت،ط1 ،1980،ص:103.

12- عامر النجار:التصوف الإسلامي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،2002 ،ص:139 .

13- ربيعة بعلي :المرجع السابق ،ص:139 .

14- أدونيس (علي أحمد سعيد) : مقدمة الشعر ،المرجع السابق ،ص:125 .

15- محمد حمود :المرجع السابق ،ص40 .

16- محمد فتوح أحمد ،المرجع السابق ،ص:40 .

17- محمد فتوح أحمد :المرجع السابق ،صص:136-137 .

18- إبراهيم رماني ،المرجع السابق ،ص:274 .

19- ينظر محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة بيروت ط3،1983 ، ص:315 .

20- صلاح عبد الصبور :الديوان ،مج1-2،دار العودة بيروت، 1977 ،ص:79 .

21- صلاح عبد الصبور :مج3 ،المصدر السابق ،ص:38 .

22- يُنظر علي عشري زايد :استدعاء الشخصيات التراثية ،دار الفكر العربي ،القاهرة، 1997 ،ص:209

23- صلاح عبد الصبور :الديوان ،مج1-2 ،المصدر السابق ،ص:544

24- - منصور إبراهيم :الشعر والتصوف، دار الأمين ،القاهر، 1999 ،ص:145